هذا وطني
MY HOME

الكثير من الزملاء كانوا ضد فكرة الذهاب إلى محافظتي صلاح الدين ونينوى، باعتبارهما من المناطق الساخنة لذلك كان الحرص هو الدافع في ذلك لا أكثر، لكني آثرت أن اعرف الحقيقة هناك وانقل الصورة عن مدننا كما هي في الواقع، وليس كما هي في الأخبار حيث أصبح التباين واختلاف الآراء عنوانها الرئيسي، وما حفزني كثيرا على الذهاب كوني عشت في المدينتين سنوات عديدة، ولي فيهما حكايات وذكريات لا يمكن أن يتجاهلها أرشيف حياتي، وهذا ما دفعني لأرزم حقائبي واتجه مع زميلي المصور محمود كفريق لـ"المدى" باتجاه المحافظتين.

□ نينوى / يوسف المحمداوي.. تصوير / محمود رؤوف

عاصمة آشور تستعيد عافيتها

نينوى الحدباء أم الربيعين تعددت الأديان والرب واحد

المدينة من جامع النبي يونس

طيلة المسافة التي تفصل نينوى عن بغداد والبالغة ٤٠٢كم، كنت استرجع ذكرياتي فيها في ثمانينيات القرن الماضي، وأسئلة كثيرة وكبيرة تدور، كيف هو شارع الدواسة الآن؟ وهل لا يزال يحفل بمطاعمه الشهيرة ودور السينما كيف هي حالها اليوم؟ وهل لفظت أنفاسها الأخيرة شأنها شأن شقيقاتها في بغداد، وهل ما يزال شارع السرخانة يمرح بالفتيات الموصليات الجميلات وهن يتبضعن من شارعهن احدث ملابس الموديلات العالمية ،وكم من هل بانتظار الوصول لاستيضاح الحقيقة، ومعرفة ما رحل وما بقي من صورة مدينة كانت بالأمس فاتنة الشمال بربيعيها ومعالمها الأثرية الثرية بتاريخ طويل وجميل.

تاريخ وجغرافية المدينة

لم امنع نفسي من التأوه وأنا أشاهد مدينة فارقتها منذ عقود، ولي فيها أيام صبا ولادة للفرح وللسعادة التي افتقدناها منذ زمن طويل، قبل الوصول ودخول المدينة، لا بد ان ندخل تاريخها ولو بصورة موجزة.

محافظة نينوى ثاني اكبر محافظات العراق مركزها الموصل، موقعها في الشمال الغربي من العراق وتحدها سوريا من الغرب وتبلغ مساحتها (٣٢٣٠٨)كم٢، ويبلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين و٥٠٠ ألف نسمة ، وتميزت نينوى عن بقية المدن العراقية بتعدد أسمائها، نينوى ،الموصل، ام الربيعين،الحدباء، وسميت من قبل الساسانيين بـ(عبوريا)،وسميت أيضا بمدينة الأنبياء لكثرتهم فيها، سميت الموصل لكونها واصل بين الشام والعراق، وأم الربيعين لكون الربيع يمتد فيها حتى أيام الخريف حيث يمتاز خريفها بالهواء العذب والبارد، فضلا عن اخضرار أوراق غاباتها ومروجها، والحدباء لانحناء منارة المسجد الكبير فيها، والبعض يقول سميت بهذا الاسم لتحدب مسار نهر دجلة عند دخوله للمدينة.

من آشور إلى المسلمين

يعود تاريخها إلى الألف الخامس قبل الميلاد، وكانت في بدايتها روضة غناء سكنها الآشوريون واتخذوها عاصمة لإمبراطوريتهم، وكانت في زمن الملك سنحاريب وغيره من الملوك الآشوريين تسمى بـ(نينوى)، ويعتقد أن اسم نينوى له صلة بالإلهة نينا إلهة السمك والحوت، والبعض يعزوها إلى النبي يونس الملقب في القرآن بذي النون، وبقيت نينوى عاصمة من القرن الحادي عشر حتى عام ٦١١ قبل الميلاد، لكن مع مجيء الساسانيين مسخت هوية نينوى الآشورية وسميت بـ"عبوريا" لكونها معبر العراق باتجاه الشام، ثم تحولت الى الموصل ،وبعد ساسان فتحها العرب في زمن الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، حيث دخلتها الجيوش الإسلامية بقيادة ربعي بن الافكل.

تعدد الأديان والقوميات والقلق

نينوى التي يقسمها دجلة إلى قسمين: احدهما يسمى بالساحل الأيمن، والآخر بالأيسر، تعد أنموذجا مصغرا للعراق لتعدد القوميات والأديان والطوائف فيها، ففيها المسلمون باختلاف مذاهبهم ، والمسيح السريان والكلدان والايزيدية والعرب والاكراد والتركمان، وتنوع حضاراتها جعلها مستودعا كبيرا للآثار والمعالم الأثرية المهمة التي تدل على عراقة وعمق تاريخ هذه المدينة الغنية بجمالها والق حضارتها.

عند تجاوزنا مفرق قضاء الشرقاط التابع حاليا لمحافظة صلاح الدين وسابقا لمحافظة نينوى، انتابني خوف وهو نتيجة طبيعية مبررها الأول القلق الذي تولد نتيجة تحذيرات الأصدقاء، فعند سامراء كان القلق بسيطا وازداد عند تكريت وبيجي ثم بدأ بالازدياد شيئا فشيئا، وهذا القلق دفعني للاتصال بصديقي الشاعر الدكتور حمد محمود الدوخي الذي يسكن الشرقاط لأسأله عن الأوضاع في الموصل والحالة الأمنية هناك، فرد عليّ ضاحكا (ماكو شي بس إذا ذبحوك آني تكفل بايصاك للبيت، لان اندله)، بادر بدعوتي لزيارة الشرقاط ، لكن الوقت الذي قضيناه بتصليح سيارتنا في سامراء استنزف نهارنا وحرمنا من رؤية حمد والمدينة.

راصد على تل السبت

حين عبرت مفرق حمام العليل تلك المنطقة التي قضيت فيها عاما كاملا كراصد عسكري فوق تل السبت لرصد الطائرات ولكني كنت بالحقيقة ارصد البنات اكثر من رصدي للطائرات،وكانت تلك المنطقة تعج بالسياح سواء من المحافظات او الأجانب فضلا عن حشود من العوائل المصلاوية التي تعد المكان منتجعا دائما من اجل الترويح والعلاج، حيث تكثر فيها الينابيع الطبيعية التي تفرز مواد كبريتية تستخدم لعلاج الكثير من الإمراض الجلدية ،وبني فيها حمامان

المحرر داخل الكازينو

عوائل ومصابيح تشع الفرح

بالقرب من منطقة (باب جديد)، وانا اقوم بإنزال عدة السفر وعيوني تتلفت يمينا ويسارا باتجاه المدينة بعد فراق دام لعقود من السنين كنت اردد مع شاعرها معد الجبوري ما قاله بوصفها:

أمّ الربيعينِ، يا قيثارَةَ الزمنِ

يا واحةَ اللؤلؤِ المنثور، في وطني

يا وَردةَ القلبِ، تَنْدَى وهيَ صادِيَةٌ

ويا صدى كلماتي ، وهيَ تكتُبُني

دارَ الزّمانُ، ومَنْ داسوا على كبدي

ظنُّوا بِأنّ جراحي ،عنكِ تُبعِدُني

سيّان أسكنُ في عينيكِ ، مُتّشحاً

بزهوِ عينيكِ، أو عيناكِ تسكُنُني

تضمُّ وجهَكِ أضلاعي ، وقَدْ نَثَرَتْ

دُرّ الحنايا لهُ ، يا دُرّةَ المُدُنِ

حَصّنْتُ وجهَكِ باسمِ اللهِ، مِنْ حَسَدٍ

ومِنْ أراجيفِ أطماعٍ، ومِنْ فِتَنِ

اتصل محمود بزميله الإعلامي خالد الموصلي الذي اتفقنا معه أن ينتظرنا عند جامع النبي يونس لنتوجه سوية باتجاه منطقة الغابات، لا اخفيكم بان القلق كان مرافقي منذ اللحظة الأولى لوصولي ، وكنت أتفحص الوجوه سواء داخل الفندق أو خارجه ،في كل خطوة قلق وتوقعات بما هو سيئ، والسبب في ذلك هو الأخبار التي تصلنا عن المحافظة والأوضاع الأمنية السيئة فيها.

درة المدن

وصلنا غايتنا مع غروب الشمس وتوجهنا - فور وصولنا - الى شارع المحطة الذي يقع فيه فندق القلعة

في الغابات لا وجود للإرهاب

الذكريات تدهشني بانتباهتها مع كل مشهد أراه.. وأنا في طريقي إلى مركز ترف المدينة في منطقة الغابات، تذكرت بغداد مع أول نقطة تفتيش واجهتنا عند مدخل الغابات، لم استطع ان اخفي ذهولي على صاحبنا خالد الموصلي وأنا ارى الموصل ترفل بكل هذا السحر وفتنة الحياة على ضفاف دجلة، نعم..فتنة تحيلك لعصرها الذهبي في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، كازينوهات رائعة بكل ما فيها، بعضها للعوائل وأخرى للأشخاص، مجمعات ومدن العاب ، قوارب ويخوت تملأها العوائل والمصابيح كأنها الأقمار تتراقص وسط دجلة العظيم، هذه الموصل التي اعرفها، نعم هذه هي وليست تلك التي شوه صورتها الإرهاب والإعلام الذي يشوه الحقائق، شباب يمخرون وسط النهر ويرددون مع صوت التسجيل في زورق كبير الأغاني، بل بعضهم كانوا يرقصون، التفت يمينا يسارا وأنا اردد مع نفسي أين القاعدة؟ أين الإرهاب؟ هنا فرح الناس لا يمكن أن يوصف، سعادتهم لا يمكن أن ترسم، فلماذا يشوهونها بأخبار الموت فقط؟

من الكهف إلى السدير

تركنا كازينو الكهف وزبائنه من الشباب وهم يتسابقون في رشف مصافي اركيلاتهم او كؤوس عصائرهم وذهبنا باتجاه مدينة العاب أهلية تسمى مدينة العاب مجمع السدير، في السلم المؤدي للمدينة أو الكازينو الضخم، استوقفنا شاب عند المدخل وطلب منا ستة آلاف دينار للشخص الواحد كثمن لتذكرة الدخول، لكني اعترضت وقلت له نحن صحافة نريد الاطلاع وليس اللعب فقام بإبلاغ صاحب المكان، فهب الرجل باستقبالنا وأمر احد العاملين واسمه حارث بمرافقتنا في تجوالنا داخل المدينة، ما لاحظناه أن النساء والأطفال أكثر من الشباب ، وحين استفسرنا من دليلنا حارث فقال: إن الإدارة تحرص على أن تكون المدينة لإسعاد العوائل الموصلية أولا، فالعوائل مثلا تدخل مجانا في حين تفرض على الشاب تذكرتان سعر الواحدة ثلاثة آلاف دينار ولا يسمح له بالبقاء واللعب في المدينة لأكثر من ساعة، لذا تجد العوائل أكثر من تواجد الشباب هناك، واغلبهم كما يقول حارث يتواجدون إما في صالات الألعاب المغلقة او في كازينوهات الكهف أو ليالي ابو نؤاس أو لياليا من اجل الاركيلة، او في كازينو شاطئ القبطان من اجل ركوب الزوارق في نهر دجلة.

حضور دائم للكهرباء

سمي بالمجمع.. ففيه غير مدينة الألعاب مطاعم للأكلات السريعة، فضلا عن وجود أماكن لجلوس العوائل من اجل الاسترخاء، واحيانا بعض العوائل تجلب الطعام معها حيث تقضي ليلها داخل المجمع، وأين ما صوبت نظرة تجد أكثر من مشهد ممتع، فهناك ساحة خاصة للعبة كرة السلة، وهنا على يساري طائرات دوارة ، وصحون طائرة، وخيول دوارة، على يميني أماكن أعدت للتزحلق وأخرى للقفز، دولاب الهوى ،سفينة نوح، الإخطبوط، الصحن الدوار، كل هذه وسط جماليات المكان الذي جعل منه الديكور قطعة مضيئة وسط لوحة منطقة الغابات، نخلة اصطناعية تشع بالأنوار، الأشجار ممتلئة أغصانها بعناقيد من المصابيح، لم يرضَ فضولي كبت سؤالي عن مصدر هذه الكهرباء، وماذا يفعلون عند انقطاع التيار الكهربائي لاسيما وان اغلب الألعاب تعمل بالطاقة الكهربائية؟ فجاءني الرد سريعا ومفاجئا من دليلنا، حيث أكد بان الكهرباء لا تنقطع ابدا عن منطقة الغابات وان قطعت فهي لدقائق معدودة، وعزا أسباب ذلك لكون منطقة الغابات ذات أهمية سياحية للعوائل الموصلية لذا قررت الحكومة المحلية ومنذ عام ٢٠٠٧ بوجوب استمرارية الكهرباء فيها، التفت صوب وزارة الكهرباء في بغداد وعلى لساني ألف لماذا تبحث عن ذريعة واحدة صادقة لأزمة كهرباء بغداد، لكن هيهات ..هيهات!! وعن عدد العاملين في المجمع يقول مرشدنا فضلا عن موظفي الإدارة ورجال الأمن هناك ٥٠ عاملا على مختلف الألعاب ،كل واحد فيهم يتقاضى ما بين ٨-١٥ الف دينار عراقي ،والدوام فيها هو من الساعة الثالثة مساءً حتى منتصف الليل، واغلب الألعاب لا يتجاوز ثمن اللعب فيها الألف دينار.

أغنية الأطلال وغنج غزال

الضحكات تتصاعد من شفاه الفرح، الطفولة في قمة نشوتها تتمايل وتملأ العاب المجمع بلوحات سعادة لا يمكن أن تلم العيون او عدسات التصوير بكل تفاصيل ذلك الكرنفال الرائع في مدينة لا تصلنا منها غير أخبار الموت والقتل من قبل أمراء الفتن، الذين أزهقوا أرواح آلاف الأبرياء من أبناء المدينة، وانا في قمة فرحتي لمدينة لي فيها آلاف الحكايات والذكريات، لم تخجل عيني من شيبتي حين مرت من أمامها غزالة موصلية حباها الله بفتنة السحر وهي تمشي بكل غنج الكون ليس على الأرض فقط بل أيضا على ضلوعي المستحقات التقاعد، لتصيح بي قصيدة قديمة كتبتها عن طالبة موصلية بطريقة الشعر الملمع مستعيرا قصيدة الأطلال لإبراهيم ناجي في التلميع:

"يا فؤادي لا تسل أين الهوى

عشك كلبي طالبة من نينوى

اسقني واشرب على أطلاله

عرك بعشيقه الجرح كلبي دوا" .

■ **والى حكاية أخرى من هذا وطني**

ثاني اكبر محافظات العراق مركزها الموصل، موقعها في الشمال الغربي من العراق وتحدها سوريا من الغرب وتبلغ مساحتها (٣٢٣٠٨)كم٢

ان الكهرباء لا تنقطع أبدا عن منطقة الغابات وان قطعت فهي لدقائق معدودة، وعزا أسباب ذلك لكون منطقة الغابات ذات أهمية سياحية للعوائل الموصلية

يقسمها دجلة إلى قسمين: احدهما يسمى بالساحل الأيمن، والآخر بالأيسر، تعد أنموذجا مصغرا للعراق لتعدد القوميات والأديان والطوائف فيها